رحلة

هواءُ بيروت

عبد العزيز الراشدي*

في الطائرة، كُنت أفكّر في بيروت. معي كتاب للكاتب المصريّ يوسف رخا، عنوانه **بيروت شي محلّ**. في رحلة العودة أيضًا كنتُ أطلّ من نافذة الطائرة، وألقي بنظري بين الفينة والأخرى على كتاب رخا. لقد تغيّرتْ نظرتي وفهمتُ ما رمى إليه الكاتب. اتفقتُ معه في أمور ولم أستطع فهم أمور أخرى. وحين وصلتُ إلى منزلي بدأتُ أقرأ كتابًا آخر ترجمه الشاعر عبده وازن للكاتب ريشار مييه عن بيروت، وكان العنوان قاسيًا ومثيرًا: **مدينة كان اسمُها بيروت**. فهمتُ، حتى قبل أن أقرأ الكتاب، أنّ ريشار مييه لم يعد يؤمن بهذه البَيْروت التي يراها وهو يكتب، لم يؤمن سوى ببيروت الماضي. وربما سيكون هذا حالي بعد عشر سنوات أو أكثر حين أعود إلى المدينة. ربّما أنظر بحسرة إلى ناصية أو مقهى، وربما أجول في الأزقة فأتذكّر خطوي.

تساءلتُ: ما الذي يجعلنا نرغب في اعتقال صورة مدينة إلى الأبد؟ ما الذي يجعلنا نصرّ على أنّ ما يوجد في أذهاننا هو الصورة الوحيدة الممكنة لمدينة؟ تذكّرتُ أيضًا حزنَ أدونيس على بيروت، رغم أنّ حزنه موضوعيّ ومفهوم، لأنّ نقده للمدينة يكاد ينسحب على كل المدن العربيّة، التي أصبحتْ متورّمة مخيفة.

خلال رحلة الذهاب إلى بيروت عشتُ مع يوسف رخا الذي يتأمّل الفروق بين الكلمات المصريّة واللبنانيّة، وكيف ينطق الناسَ الألفاظَ. لذلك، وبمجرّد نزولي في مطار بيروت، قلتُ سأبدأ من حيث انتهى رخا وأتأمّل الألفاظ. عليّ بها. فاللغة أصلاً لعبتي، ومؤخرًا أصبحتُ «متطرّفًا» في تأمّل لغة الناس وألفاظهم.

* - كاتبة من المغرب.

أرتدي معطفي الشتويّ قبل النزول في مطار بيروت. تركتُ كزابلانكا باردةً. تستقبلني صديقةٌ لبنانيّة، وتضحك من معطفي. ثيابها صيفيّة (ربيعيّة في أحسن الأحوال). تمشي برشاقة مثل حمامة. في ما بعد، قلّدتُها في كلّ مكان وضحكنا معًا: في معرض الكتب ونحن نتجوّل في الأروقة، في الشارع ونحن نبحث عن محلّ فلافل أو KFC لنتعشّى، وفي منطقة الحمراء حيث «العَجْقة» التي تُتعبُها فلا تعرف كيف تركن السيّارةَ وتغضب. في منطقة الحمراء، لم أكن أسأل سوى عن محلّ الدجاج الجاهز، الذي طالما حذّرني منه صديق، لأنّ هذا الدجاج أصبح مثلَ أداة انتحار؛ فمَزارعُ الدجاج تُعالِج منتجاتها جينيًا ليُصبح للدجاجة ثلاث أفخاذ وتزيد من اللحوم. كنتُ أبحث عن محلات الـ KFC ضاربًا عرض الحائط بنصائح الصديق. والصديقة لا تحب KFC ـ لأنّو بينصّحْني ـ تقول. أما أنا فاعتدتُ أن أتناول منه مُكْرَهًا حين تُتْعِبُ معدتي الأطعمةُ المحلّيّةُ في كلّ العواصم العربيّة؛ فأنا شخص جبان في ما يتعلّق بالأكل، ولا أستطيع أن أدخل مواجهةً مع معدتي. آكله وأقول لا شيء يعلو على الطاجين المغربيّ. نركبُ سيّارتها الصغيرة وتمضي بنا.

أسمع الأغاني الجميلة (واحدة من خاصيّات بيروت التي أصبحتْ أثيرةً لديّ). أسمع سلمى مُصْفي تغنّي مع زياد الرحباني. أسمعُ ريما خْشِيشْ تَتغزّل في الحبيب وفي كلمة الحبّ، في نطق كلمة الحبّ، تسأل الحبّ عن حالة وأخباره لتطمئنّ إليه. تقول الصديقة إنّ الناس ينظرون إلى لهجة اللبنانيّين على أنّها لغة مائعة: «تُقبرني،» «حبيبي» المطوّحة في كلّ مكان، و«ولَوْ،» «تِكْرَمْ عِينَكْ»... لكنّني رأيتُها لغة مناسبة جدًا، بل ربّما أكثر تعبيرًا عن الحبّ من لغتنا التي ترتبط فيها كلماتُ الحبّ أحيانًا بالموت والحُمق. لهجتُنا فيها الكثيرُ من بداوة الصحراء، رغم الخضرة الضاربة في كلّ مكان من مدن المغرب ورغم قُربنا من أوروبا. يقول الحبيب لحبيبته المغربيّة: «كَنْمُوتْ عْليكْ،» أو «كَنْحْمَاقْ عْليكْ،» ويُسمّي الشاب الكازاوي حبيبته «الصّاطة،» أو «الدرّيّة دْيَالِي،» وترى الشباب وهم يمسكون حبيباتهم بما يُشبه العنفَ في دروب الأحياء، والبنتُ تفهم أنّ هذه طريقة التعبير عن الحبّ وأنّ البدويّ الواقفَ أمامها يتصرّف هكذا لأنه لا يستطيع نطقَ كلمة حبّ. لا ملامسات خفيفة، ولا نظرات في العيون. الشاب المغربيّ إذا عبّر لفتاة عن حُبّه بألفاظ رقيقة يكون مدعاةً للسخريّة من لدن أصدقائه. كنتُ أتأمّل اللغة، وأبحث عن الريفيّة التي اتّهم بها يوسفَ رخا بيروت في كتابه فلا أجدها، وأبقى حائرًا.

شارع الحمراء مركز العالم، بدا لي مثل الحُسيْن عند المصريّين ومثل جامع الفْنَا عندنا، ليس في شكل الأمكنة ولا حركة الناس ـ فشتّان ما بين مكانٍ ومكان ـ لكنّ الحُسين أكثر المناطق التي يسعى زائرُ القاهرة إلى رؤيتها، وجامع الفْنا أكثر الأماكن بهجةً في مرّاكش ويأتي إليه الملايين كلّ عام، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الحمرا؛ كلّ من زار بيروت لا بدّ أن يراها. كتب الكثيرون عن الحمرا مقالات وروايات وأشعارًا، وصُوِّرتْ أفلام كثيرة عن منطقة الحمرا وشارعها، ولا نسبح في النهر مرّتين، لكنْ كلّ كتابة جديدة عن الشارع لها ألقُها الخاصّ.

في فندق المارلي، وفي مقهى لاكوسطا الشهير، شربتُ الشاي والقهوة وتصفّحتُ علبةَ رسائلي، والتقطتُ الصّور كأيّ سائح، نكايةً في الكتابة وهمومها. وتذكّرتُ أيضًا، بعد أن وضَعتُ قلمي واسترحتُ، ما قاله غالب هلسا: «الكتابة أحيانًا تكون بديلاً من الحياة.»

في الحمراء، في مقهى «تاء مربوطة،» وفي مقاهي شارع سبيرز أو في مقهى «البارومتر،» عشتُ الكثير من النقاشات الصاخبة (بفعل ضجيج المكان لا الاختلاف) مع شبّان وشابّات. بيروت تحتفي بالشباب وتمنحهم حقّ الكلام. وحين زرتُ بعضَ القنوات التلفزيّة، لم أَر غيرَ الشباب يتحرّك ويُنشّط الدورةَ الدمويّةَ للإعلام. في الشارع، أركبُ الطاكسي بعد أن أشير بيدي «سِرڤيس» لكي لا أدفع الكثير، وأنخرطُ في النقاش مع صاحب التاكسي. لكلّ القضايا مخرجٌ في لبنان، ولكلّ مشكلةٍ حلّ. وحتى الأمور، التي يكرهها اللبنانيُّ ويغتاظ منها، قد يجد لها مخرجًا أنيقًا. أناقش صاحبَ الطاكسي حول البلد ومشاكله، متحفّظًا، مراقبًا ردودَ أفعاله، فينطلقُ ينتقد الحكومةَ والمعارضةَ معًا وهو يقول إنّ «اللبنانيّة بَدّهُمْ دبح.» لماذا يا أخي؟ لأنّهم ليسوا في المستوى. ومن قال إنّ الحكومة أو الشعب في المغرب في المستوى؟ أو في أيّ بلد عربيّ آخر؟ يصمت قليلاً ويستدرك ضاحكًا: «كلّ الشعب العربيّ بدّو دبح.» ثم يسوق وهو يسبُّ الشارعَ العربيّ.

صديقتي لا تعرفُ شيئًا عن المغرب. تعجّبْتُ. ربّما بالغتُ في الضغط عليها كي تحدّثني عمّا تعرفه عن بلدي، وأنا الذي كلّما زرتُ البلدَ أرى أمّي جالسةً أمام التلفاز تتابع المسلسلَ اللبنانيّ أو السوريّ. نحن نعرف الكثير عن لبنان في المغرب، بل يَعتبر بعضُ الناس أنفسَهم طرفًا في قضاياه، لذلك تجد في المقهى مَن يناقش ويدافع عن نصر اللّه، ومن يُدافع عن ١٤ آذار، رغم أننا في المغرب نقول مارس لا آذار. ينشُرُ بعضُ الكتّاب في لبنان هربًا من واقع النشر غير المنتظم، ويسمَعُ الجميعُ فيروز ومرسيل وماجدة الرومي. وحين جاءت نانسي عجرم إلى مرّاكش احتشد الآلافُ من الشباب لـ «رؤيتها،» وقامت الدنيا ولم تقعُدْ رغم أنّ جميلات المغرب لا يوجد مثلهنّ في أيّ مكان. ربّما هي صورةُ المشرق القديمة التي لا زالت تُعاند، وربّما هي تبعيّة المغرب للمشرق التي عمّرتْ طويلاً، لكنّها تسير إلى زوال تدريجيًا على كلّ حال. حين حاصرتُ الصديقةَ بالسؤال، حدّثتني، محرجةً قليلاً، عن الأفلام المغربيّة القصيرة التي خَلقتْ حراكًا في رأيها، وذكرَتْ بعضَها. في الدّوان تاون، في الساحة الشهيرة التي غيّرَتْ لبنان، تجوّلتُ، وفي مقاهيها أكلتُ الطعام اللبنانيّ، والتقطْتُ الصّور.

ماذا تعرف عن تاريخ لبنان يا مُلتقِطَ الصّور؟ في لاكوسطا أو في معرض الكتاب بالبَيّال، لا تشكر رموزَ لبنان أو من كُنتَ تَعتقدهم كذلك في مراحل مختلفة من حياتك. لا تتحدّث (بخير ولا بشر) عن الحريري أو جنبلاط أو مهدي عامل أو عن مارسيل خليفة أو عن حسن نصر اللّه. ربّما يحقّ لك الحديث قليلاً عن فيروز. بوسع الجميع أن ينتقد الجميع، بوسع الكلّ أن يخاف من التعدّد، وأنت ترى أنّ ما يَثبتُ قبل لحظةٍ بالدليل سرعان ما يثبتُ ضدُّه بالدليل، وترى انكسارَ النوايا في كلّ مكان، وتحوُّلَ الأفكار إلى زوايا حادّة. لكنّك ترى كلّ ذلك جميلاً بمنظارك؛ فهو يحمي من الشموليّة والانفراد بالقرار. رغم ذلك احذرْ: ما تناقشه بصيغة الغائب وتكون باردًا تجاهه ومحايدًا هو ساخنٌ بالنّسبة إلى الآخر الذي أمامك، بل هو النار. فأنْ تناقش الطائفيّةَ أو الحربَ أو السياسةَ بهدوء ليس أمرًا يجعل طريقَكَ سالكًا دائمًا، لأنّها بالنسبة إليك بعيدة، موضوعٌ فكريّ، لكنّها بالنسبة إلى صديقك سببُ فقدان الحبيب أو الابن. وأن تُناقشَ سطوةَ العائلات وتاريخها والتصنيف الطبقيّ التي تعتقد أنّك قرأتَ عنه بموضوعيّة البعيد، لن يحميك من الزّلل. حين تصمت، وتتعلّم حكمةَ الأوّلين الفريدة، سوف يتحدّث اللبنانيّون عن صعوبة البلد. ستراهم يشتكون منه وكأنّه سينهار بعد دقيقة، ثم يتنهّدون ويقولون إنّهم يحبّون لبنانَ ولا يستطيعون التخلّي عنه.

الشرطة في لبنان مختلفة، بلباس مرقّط، تمامًا كالجيش. متاريس في بعض الضواحي. صور الزعماء السياسيّين إلى جانب الإعلانات. سيارات بزجاج أسود عليها عبارة «هيئة سياسيّة،» وحرسٌ بأسلحة. آلاتٌ لفحص المتفجّرات قبل دخولك إلى أمكنة محدّدة بالسيارة. بشرٌ يتطلّعون بانتباهٍ إليك أيّها الغريب. ابتسم في الوجوه يا ولدي. لكنّ هذه القيود، لا تمنعُ الحياةَ في لبنان أبدًا، بل تمنحها طابعًا خاصًا. في المعرض يحتفي الناس بالكتاب. يوزّعون الحلوى، ويشترون الكتبَ، ويناقشون الإصدارات بهمّةِ بلدٍ صَنَع تاريخًا فريدًا للقراءة والكتاب.

ثم إنّ بيروت ورقة بيضاء أمامك، فاكتبْ ولا تتكلّم. لكنْ يا حسرة! ماذا ستكتب! عن سواد الليل؟ عن دهشتك منها ومن ناسها وأضوائها التي تشبه أضواءَ باريس؟ يا حسرة على عاشق ليل بيروت، لن يربحَ منها غيرَ الوهم. روحُ الرّوح تجول بين أحضان الشوارع آمنةً، والبحرُ يمرُّ بمحاذاتك، وتتقافز أمام ناظريك الوجوهُ عند الفجر. وحين يستيقظ الجميعُ ليجول بين أحضان المدينة ويعتصر المتعةَ (من نام أصلاً؟)، يُرتّبُ عاملُ الاستقبال في الفندق الكلامَ المرتبكَ ليُفْهمك إذا عُدْتَ متأخّرًا. تسمع عند الفجر نَغَمًا بعيدًا، فتردّد الأغاني لأنّ المكان لا يظلم أحدًا. يسقط النومُ من الأعلى ولا تستطيعه بعد ذلك لأنّك لم تلج الرحابة، بل سقطتَ في البيْن بيْن، وكؤوس «المازة» لم تكتمل لتبلغَ مداك فتسهر وقد طار الاختلاج.

حسنًا، أنت تجيء بيروت وهواؤها معتدلٌ هذ المرّة. بحرُها هادئ ونساؤها طيّعات، الحقيقي منهنّ والمستَوْرَد. ما كلّ هذا الكمال؟ شوارعها اصطلتْ بسُخام الحرب، لكنّها نقيّة، ولا مجال للالتباس، فلا تبحث سوى عن بعض المباني التي اسودّتْ وظلّت شاهدة. وإيّاك أن تلتقط صورة. تقول لك صاحبة المصبنة الصغيرة إنّ المدينة تَسْحر القادمين إليها، رغم كلّ شيء، فلا يكفّون عن المجيء.

تعبُرُ كثيرًا جادّةَ صائب سلام. تتوغّل في الطرقات الملتوية راجلاً. لاكونكورد. مار الياس. وسط بيروت. البسطة. تتعبُ وتتيهُ. ولكي تعود إلى الفندق يظلّ أمامك مقهى لاكوسطا عنوانًا فريدًا. تعبُرُ الأزقّة الضيّقة حيث غالبًا ما تشتكي الصديقةُ في النهار بأنّها «عكس السير». وتراها تسأل دائمًا أصحابَ السيارات القادمين من أمامها: «أنا عكس السير؟» «أنا عكس السير؟» فيردّون بحركة من رؤوسهم. تفكّر أيضًا في «الكولدن راش» لأنّ حسناء صادفتَكَ في المطار وأعطتك عنوانَه، فينصحُك الصديق بالتراخي والنوم باكرًا، لأنّ ثمّة فقط البناتِ اللواتي يبحثن عن شخص «يطربشوه» أو يلبسونه العِمّة على حدّ تعبير إخواننا المصريّين.

ثم فكّرتَ في الأكل عندما جُعتَ وكرهتَ الأمبرياليّة، فنصحك الصديقُ بالفلافلِ والتبّولة. وفكّرتَ أن تكتُب عن المسرح في بيروت فضحك السامع. عندها عرفتَ أنّ بيروت مسرحٌ كبير.

أنت تعرفُ قيمةَ الأمكنة. تعرف الإحساسَ الذي تمنحه ولادةُ مدينة على أنقاض مدينة، ولو حملا الاسمَ نفسَه. عرفتَ ذلك من قصة أكادير المغربيّة التي يحكيها الشيوخُ. المدينة التي هدمها الزلزال فلم تعد نفسَها وإنْ تجدّدَتْ وبُنيتْ بطراز جديد أحسن. الجرح الذي يُصيب روحَ المدينة يكون كبيرًا. مدينة ماتت ثم وُلدتْ. لا يُتاح للشبّان الذين تراهم في هذه المقاهي الجميلة أن يعرفوا المدينة القديمة التي تهدّمتْ. هل يعنيهم ذلك أصلاً؟

هكذا إذن هي بيروت، حيّةٌ، عاصمةٌ. الملُ لا يتخثّر فيها مثل الكثير من العواصم العربيّة. يُراودها القلقُ دائمًا، لكنّ قلقها خاصٌ ورمزيّ؛ فهي تتجدّد دائمًا بفعل الاختلاف، ويكون للأفكار دائمًا فيها معنى ولو كانت أفكارَ الموت والإقصاء. لذلك هي حيّةٌ على الدوام، عكس الكثير من عواصمنا التي ماتَتْ بفعل الملل، وركد الزمانُ فيها حتى لم يَعُدْ من مكان للتغيير، وعادت كلّ حركة محسوبةً، وعاد كلُّ واحدٍ يحسبُ الصيحة عليه.. ألم يقل فيلسوفٌ ما إنّ الطريق إلى البناء يبدأ من التخريب؟ هنا تأخذُ المدينة صورةَ المتجدّد المبنيّ على الدوام. من الميت يَخْرج الحيّ.

بيروت